لِمَـن الحُكـم؟

عبـد المنعـم مصطفـى حليمـة

" أبو بصير الطرطوسي "

لِمَـــن الحُكـــم . . ؟

عبد المنعم مصطفى حليمة
" أبو بصير الطرطوسي "

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:102.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ النساء:1.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾الأحزاب:70-71.

أما بعد:

فإن أصدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثَةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد، لِمَن الحكم .. ومَن له حقّ التشريع؛ حق التحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح .. ومن ثمَّ له حق الطاعة والانقياد فيما يُشرِّع ..؟

وشَرعُ مَن يجب أن يمضي في البلاد والعِباد .. وأي شرعٍ هو الأسلَم، والأحكم، والأعدَل .. شرع الخالق سبحانه وتعالى .. أم شرع عبد الله المخلوق .. ولماذا؟

هذا سؤال كبير .. قديم جديد .. يتجدد ويتكرر طرحه .. كما يتجدد الصراع والخلاف عليه . بصورٍ شتَّى . بين الفينة والأخرى .. وإلى أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها .. للناس في الجواب عنه مشارب .. ومذاهب .. وأهواء شتّى!

في الأنظمة الديكتاتورية الطاغية الفردية .. قالوا: هو حق خالص لشخص الحاكم أو الملِك وحِزبه؛ فله أن يشرّع ما يشاء، ويُحِل ويُحرم ما يشاء، ويُزيل من الشرائع والقوانين ما يشاء .. ويُبقي منها ما يشاء .. وفق ما يبتغي هواه .. والقانون الذي يمضي في البلاد والعباد، لا يكون قانوناً نافذاً إلا بعد موافقة وتوقيع هذا الحاكم الفرد المتسلط على البلاد والعباد .. فهو لا يُريهم . ولا يجوز لهم أن يروا . إلا ما يرى .. فالحق ما يراه هو حقاً، والباطل ما يراه هو باطلاً!

ثم أن هذا الحاكم أو الملِك الفرد تراه يُشرّع لنفسه التشريع الذي يجعله فوق المساءلة والمحاسبة أو المراجعة .. فهو يَسأل، ولا يُسأَل .. ويُحاسِب ولا يُحاسَب، والويل كل الويل لمن يتجرأ على مساءلته ومُحاسبته!

وهذا مثله في الغابرين فرعون اللعين، كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾القصص:38. أي ما علمت لكم من مشرعٍ . يحلل لكم ويحرم . ترجعون إليه في جميع شؤون حياتكم غيري .. فأنا المشرّع لكم لا أحداً غيري!

وقال تعالى:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾غافر:29. أي لا أُريكم، ولا أسمح لأحدٍ أن يُريكم، كما لا أسمح لكم أن تروا إلا ما أرى .. وما أريكم إياه هو الحق الذي ما بعده إلا الغي والضلال .. وما أكثر طغاة العصر الذين يُحاكون أسلوبه وطريقته!

وقال تعالى:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات:23–24. أي كما أن التشريع من حقي وحدي، فلا أُريكم إلا ما أرى .. فأنا ربكم الأعلى الذي له الحق في أن يربيكم وينشّئكم على قانونه ونظامه وشرعه .. كما تربو وتنشأ الماشية في مزرعة صاحبها .. وبحسب ما يرمي لها من الأطعمة والأغذية .. وما أكثر فراعنة وطغاة العصر الذين يقولون مقولة فرعون هذه .. ويتخلقون بأخلاقه .. ويفعلون فعله .. وبأساليب شتى؛ بعضها تقل صراحة ووقاحة عما قاله فرعون، وبعضها يزيد!

هذا في الأنظمة الديكتاتورية . على اختلاف مسمياتها وصورها . بينما في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية .. قالوا: المشرَّع هو عبارة عن مجموعة من

الأفراد ..يُفرَزون من خلال حصولهم على أغلبية أصوات من يُشاركون في العملية الانتخابية من الشعب .. يُسمون أنفسهم نواباً ومشرعين .. تناط بهم مهمة التشريع، والتحليل والتحريم، والتحسين والتقبيح .. وسن القوانين .. والحكم على الأشياء تحسيناً وتقبيحاً .. والقانون الذي يصدر عنهم أو عن أكثريتهم هو القانون الملزم والنافذ في البلاد والعباد .. الذي لا يجوز العدول عنه.

فالأنظمة الديمقراطية لا تختلف عن الأنظمة الديكتاتورية في هذا الشأن .. سوى أنها ترى التشريع منوط بمجموعة أفراد بدلاً من أن يكون منوطاً بشخص واحد كما في الأنظمة الديكتاتورية .. فهي إذ لا تقبل أن يحتكر شخص واحد لنفسه الألوهية وخاصية التشريع .. فإنها تبارك وتقر بأن هذه الألوهية والربوبية في الأرض ينبغي أن يتمتع بها مجموعة من الأشخاص .. وكل من يرى نفسه أهلاً للتشريع، ثم يحظى بأكثر الأصوات في الانتخابات!

وفريق آخر ينتمون إلى الدّين المُحرَّف والمبدل .. أو إلى التصور الخاطئ عن الدين .. فأناطوا مهمة التشريع والتحليل والتحريم .. والتحسين والتقبيح .. وسن القوانين .. بجمع من الأحبار والرهبان .. فقالوا: هؤلاء الذين لهم الحق في أن يُحلّوا ويحرموا . من تلقاء أنفسهم . ما يشاؤون .. ولهم الحق في أن يحكموا على الأشياء ذماً ومدحاً .. فالأمر إليهم من دون

الناس .. لأنهم يتكلمون باسم الله، ونيابة عن الله .. وهم المعنيين من قوله تعالى:﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾التوبة:31. يحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال من غير علم ولا سلطان من الله .. وصورة هؤلاء المشرعين تظهر بوضوح في حكم الكنيسة أو الدول التي تحكمها الكنيسة، وما لباباواتها من سلطة تشريعية ذاتية من دون الله ..!

كذلك حكم الدولة الشيعية الرافضية ـ كما في إيران ـ الذين ابتدعوا من عند أنفسهم نظام ولاية الفقيه .. الذي له ولكلماته وأفعاله قدسية، وعصمة، وصلاحيات إمامهم الغائب المعصوم والمطلقة .. كما هو مقرر في دينهم، وكتبهم!

وفريق رابع مهزوم: يرى أن الدول الحاكمة والمعاصرة تنقسم إلى قسمين: دول عظمى لها صفة السيادة والريادة والاستعمار .. الآمرة الناهية .. لا يجوز أن يُرد لها أمر .. ودول صغرى لها صفة العبودية والتبعية .. وعلى الدول الصغرى التي لها صفة العبودية والتبعية أن تستمد قوانينها وتشريعاتها من الدول الكبرى التي لها صفة السيادة والريادة والتقدم .. وأن لا تخرج عن قانون الأسياد ـ إلا فيم يسمح به الأسياد ـ حتى لا يحل بها غضب الأسياد .. ونقمة دولهم العظمى .. وهذا الفريق من الحكام العبيد هو الذي عليه غالب الأنظمة الحاكمة في بلاد العرب والمسلمين .. وهم أحط الفرقاء ـ الآنفة

الذكر أعلاه . قدراً .. ومكانة .. وعبودية للعبيد .. فهم الطغاة العبيد؛ طغاة على شعوبهم، عبيد لأسيادهم في الدول الاستعمارية الكبرى!

وجميع من تقدم ذكرهم . على ما بينهم من تباين واختلاف . يشتركون في صفة واحدة؛ ألا وهي: حصر وقصر مهمة التشريع بالمخلوق؛ بالإنسان .. سواء كان هذا الإنسان فرداً أم مجموعة أفراد .. أم حزباً واحداً أم مجموعة أحزاب .. فكلهم شركاء في وزر الشّرك .. والظلم .. ووزر تعبيد العبيد للعبيد .. من دون الله عزّ وجل .. وكلهم لهم . في دين الله . حكم ومسمى " الطاغوت "!

ثم ما إن تُثار قضية الحكم بما أنزل الله .. وأن الحكم ينبغي أن يكون لله تعالى وحده؛ لا لأحدٍ سواه .. إلا وتثور ثائرة طوابير الكفر والشرك، والنفاق والشقاق .. معترضين، ومستنكرين، ومتهكمين، وساخرين .. وما أكثر تلك الطوابير!

أيما دولة تحاول أن تقوم على مبدأ الحكم بما أنزل الله .. ومبدأ التحاكم إلى شرع الله .. سرعان ما تُحاصَر وتُحارَب .. وتُشوَّه صورتها .. وتُرمى بالقنابل المدمرة .. والصواريخ العابرة للقارات!

كل الشعوب .. وكل الملل والنحل . كما هو الواقع . لها كامل الحق والحرية في أن تقيم دولة وحكومة تمثلها، وتمثل أبناءها .. وتُحكم بالقانون

التي تشاء .. إلا الإسلام . دين الله تعالى . لا يحق له أن يُقيم دولة في الأرض تمثله وتُمثل أبناءه وأتباعه!

صدق الله العظيم:﴿ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾البقرة:217.

يقبلون منك أن تناقشهم في كل شيء .. أن تمارس أقصى حرية المجون والتحلل من القيم والأخلاق .. لا يُبالون من أجل ذلك؛ بل تراهم يشجعون ويُرغِّبون الشعوب أن تسير في نفق التحلل والمجون والفساد والفجور إلى أقصى حد .. ولكنهم يُمانعون أشد الممانعة من أن تُطرَح عليهم مسألة لمن الحكم .. من المطاع لذاته .. من له حق التشريع، والتحليل والتحريم .. والتحسين والتقبيح .. والحكم على الأشياء .. لله الواحد الأحد أم للطاغوت .. للخالق أم للمخلوق!

فإن جاء الجواب أن الحكم والتشريع لله تعالى وحده، أجابوك من فورهم كما قال تعالى:﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ص:5.

وقال تعالى:﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾؛ أن الله تعالى وحده هو المعبود، المألوه، والمطاع لذاته فيما يحكم ويشرّع ﴿ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ الطواغيت؛ والأنداد الذين يُشرعون من دونه ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر:45.

فالله تعالى بزعمهم له من هذه الحياة الدنيا .. المعابد والمساجد وحسب .. وحصته من عباده وهذه الحياة الدنيا من يدخل تلك المعابد لحظة أو ساعة دخوله وحسب .. أما ما سوى ذلك من شؤون الحياة المختلفة .. ومن شؤون الحكم والسياسة .. فللطاغوت .. والبُعول .. ساء ما يحكمون!

قالوها بكل وقاحة وصراحة:" ما لله، لله. وما لقيصر، لقيصر "!

وقالوا:" الدين لله، والوطن للجميع "!

وهؤلاء يصدق فيهم قوله تعالى في المشركين:﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾الأنعام: 136[1].

---

[1] قال ابن كثير في التفسير:" هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى:[وجعلوا لله مما ذرأ] أي مما خلق وبرأ [من الحرث] أي من الزرع والثمار [

ونحن نقول لهؤلاء الظالمين: إنا لله وإنا إليه راجعون .. فنحن، وقيصر، والأوطان، والأرض كلها .. والكون كله وما فيه، ومن فيه .. لله رب العالمين، لا شريك له.

لا يُمانعون بأن يُعبَد الله في السماء .. وأن يكون له الحكم والأمر في السماء .. ولكنهم يُمانعون أشد الممانعة بأن يُعبَد الله في الأرض .. أو أن يكون له الحكم والأمر في الأرض .. أو أن يُطاع في الأرض من دونهم..!

ويأبى الله إلا أن يحق الحق بكلماته ولو كره المشركون .. وأن يكون هو الإله المعبود والمطاع في السماء وفي الأرض سواء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ الزخرف:84.

والأنعام نصيباً]؛ أي جزءاً وقسماً [فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا] وقوله [فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم]. قال علي بن أبي طلحة والعوفي، عن ابن عباس أنه قال: في تفسير هذه الآية إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ... وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه "ا– هـ.

قلت: ونحوهم قول زنادقة العصر العلمانيين: هذا لله، وهذا لقيصر .. فما كان لله . وهو المساجد والمعابد . يصل إلى قيصر، ومن حق قيصر أن يتدخل فيه .. وما كان لقيصر . وهو جميع مرافق الحياة وشؤون الحكم . لا يصل إلى الله .. ولا يحق لله أن يتدخل فيه .. فقد تشابهت قلوبهم، وأقوالهم [سَاء مَا يَحْكُمُونَ].

هذا هو موقف وقول المشركين بكل أطيافهم ومسمياتهم وصفاتهم .. عبر جميع أزمنتهم السابقة والحاضرة والمستقبلة .. الطواغيت منهم والأتباع .. **فما هو موقف الإسلام، وما هو قوله الحاسم في هذه القضية الشائكة الكبيرة .. وكيف ينظر إليها .. ويتعامل معها؟**

من خلال ما تقدم ندرك أن المشكلة موجودة وقائمة، وهي كبيرة جداً .. والأمة الإسلامية منذ سقوط الخلافة العثمانية وإلى الساعة هذه تُعاني من فتنة التحاكم إلى الطاغوت وشرائع الطاغوت .. وهي تعيش حالة من الانفصام بين الاعتقاد والشعور من جهة .. وبين الواقع والسلوك من جهة أخرى؛ المغاير كل التغاير عن عالم الاعتقاد والشعور!

من هنا تأتي أهمية هذا البحث، وأهمية الإجابة عن هذا السؤال الكبير: لمن الحكم في الأرض ..؟

ولماذا يجب أن يكون الحكم بما أنزل الله ..؟

وهل قضية الحكم بما أنزل الله قضية ثانوية يُمكن تجاوزها من أجل غيرها من القضايا كما يصور البعض .. أم أنها قضية جوهرية ومركزية ومصيرية لا يُمكن تعديها أو تجاوزها والتغاضي عنها .. قبل أن تُحسَم، ونُعطى عليها الإجابة الكافية الشافية!

نجيب عن هذا السؤال الهام والكبير، من أوجه عدة:

منها: أن الذي قرره الإسلام . وألزم به أتباعه، ودعا إليه جميع الناس . في جميع الكتب السماوية .. وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل؛ من

لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه: **أن الحكم والتشريع لله تعالى وحده لا شريك له** .. فكما أن له ﷻ الخلق فله كذلك الحكم والأمر .. وكما أن هذا الكون ـ كل الكون ـ تنتظم حركاته وسكناته، ويعطي عطاءه العظيم بحكم الله وأمره، وتدبيره ورعايته .. كذلك الحياة الدنيا لا ينتظم أمرها ولا يستقيم حالها ـ وحال الناس فيها ـ على العدل والحق إلا عندما تُحكم بما أنزل الله .. وتسير وفق مشيئته الشرعية الدينية.

والعباد كما أنهم يستسلمون لحكمه القدري الكوني، لا مناص لهم من رده .. كذلك يجب عليهم أن يستسلموا لحكمه الشرعي الديني .. ويدخلوا في سلم الإسلام كافة .. والذي يعترض على حكمه الشرعي الديني كالذي يعترض على حكمه الكوني القدري ..!

وعليه فإن حق التشريع، والتحليل والتحريم، والحظر والإباحة، والتحسين والتقبيح لله تعالى وحده لا شريك له؛ وهو حق خالص له ﷻ دون أحدٍ من خلقه وهو من أخص خصائصه التي تفرّد بها عن سائر خلقه .. فكما أن الله تعالى هو الخالق المالك المتفرد بالخلق والملك، لا شريك له في الخلق والملك .. كذلك فهو سبحانه وتعالى المتفرد في الحكم والتشريع؛ لا شريك له في الحكم والتشريع .. وكما أنه ﷻ يجب أن يُعبَد ويُطاع في النُّسك والشعائر التعبدية .. كذلك يجب أن يُعبد ويُطاع فيما يشرّع، ويأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويُحسّن ويُقبّح، في جميع نواحي الحياة الأخرى ..

وكما أنه ﷻ هو الإله المعبود بحق في السماء، فهو كذلك الإله المعبود بحق في الأرض .. وأيما معارضة لهذا التقرير الحاسم، والإقرار للمخلوق . أيَّاً كان هذا المخلوق وكانت صفته . بهذا الحق . حق التشريع والتحليل والتحريم، من دون أو مع الله . يعني الإقرار والاعتراف لهذا المخلوق بالألوهية والربوبية، واتخاذه نداً لله عز وجل في صفاته وخصائصه .. ويعني الشرك .. ويعني بالضرورة الخروج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والشرك والعصيان .. ومن دائرة التصديق إلى دائرة التكذيب والنِّفاق .. ويعني بالضرورة مناقضة شهادة التوحيد " **لا إلـه إلا اللّه** " مهما كثر ترددها على اللسان؛ مجرد اللسان، فالإيمان قول، واعتقاد، وعمل .. وهو لا يُقبَل من صاحبه إلا إذا أداه بخصاله وأركانه الثلاثة معاً.

هذا الذي تقرره بجلاء ووضوح أدلة النقل، والعقل، قال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاء إِلَهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾الزخرف: 84. فكما أن الله تعالى هو المألوه المعبود المطاع بحق في السماء، كذلك فهو المألوه المعبود المطاع بحق في الأرض.

وقال تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾؛ أي ليس الحكم لأحدٍ ﴿ إِلاَّ ﴾؛ أداة استثناء جاءت بعد نفي تفيد الحصر والقصر ﴿ لِلّهِ ﴾؛ وحده لا شريك له ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ ﴾؛ أحداً ﴿ إِلاَّ ﴾؛ أداة استثناء جاءت بعد نفي تفيد الحصر والقصر ﴿ إِيَّاهُ ﴾؛ أي إلا الله تعالى وحده .. فهذا التوحيد وهذا الإفراد

للخالق ﷻ في الحكم وفي العبادة هو ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾؛ الحق والمستقيم الموصل إلى خيري الدنيا والآخرة ﴿ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾يوسف:40.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾الأنعام: 57. الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني.

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾الكهف:110. فالآية السابقة أعلاه دلت أن الخالق ﷻ هو المختص بالحكم والتشريع، وفي هذه الآية ينفي الخالق ﷻ أن يكون له شريك في الحكم والتشريع.

وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾يونس:59. أي كيف تتجرؤون على التحليل والتحريم من تلقاء أنفسكم، ومن دون أن تستأذنوا الخالق ﷻ صاحب الأمر والشأن .. وهو الذي أنزل لعباده الرزق وليس أنتم .. والذي له وحده حق التشريع والتحليل والتحريم فيما أنزل من رزق؟!

فالتحليل والتحريم ليس من اختصاصكم، وإنما هو من اختصاص الخالق الرازق المالك .. الذي ينزل الرزق .. وبالتالي لا بد من الرجوع إليه ﷻ فيما تحلون وتحرمون .. وتحسنون وتقبحون .. فإن لم تفعلوم فأنتم﴿عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ ﴾؛ من تلقاء أنفسكم، ومن دون أن تستأذنوا الخالق ﷻ فيما تحلون وتحرمون وترجعون إلى حكمه وشرعه .. فهذا عين الافتراء والكذب والتعدي ﴿ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾النحل:**116**.

وقال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ الطواغيت والمشرعين من دون الله ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ ذي حقٍّ وقيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾غافر:**20**.

وقال تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾؛ وهو كل حكم يخالف حكم الله، فله حكم وصفة الجاهلية ﴿ يَبْغُونَ ﴾؛ يطلبون ويرجون منه النفع والفائدة ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:**50**.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إن اللّه هو الحكَم وإليه الحُكم ".

وعن الحكَم بن سعيد قال: أتيت النبي ﷺ فقال: " ما اسمك؟" قال: أنا الحكَم، قال ﷺ:" بل أنت عبد اللّه "، قلت: فأنا عبد الله.

فحتى مجرد التسمي بـ"الحكَم" فكان النبي ﷺ ينكره، ويعمل على تغييره واستبداله باسم آخر؛ لأن " الحكَم " اسماً ومعناً هو مما يختص به الخالق وحده دون أحدٍ من خلقه.

وفي سنن أبي داود، عن هانئ أنه لما وفد على رسول الله ﷺ، مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال:" إن اللّه هو الحكَم، وإليه الحكم، فلِمَ تُكنَّى أبا الحكم .. فما لك من الولد؟" قال: لي شريح، ومسلم، وعبد الله، قال:" فمن أكبرُهم؟" قلت: شريح، قال ﷺ: "فأنت أبو شريح "[2].

ولما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ: إن حمدي زينٌ، وذمِّي شين، قال له:" ذاك اللّه "[3]. فالحكم على الأشياء بالمدح أو الذم من خصوصيات الله تعالى وحده؛ فالله تعالى وحده هو الذي يكون مدحه زين على الإطلاق، وذمه شين على الإطلاق، وليس أنت ولا أي مخلوق غيرك أياً كان هذا المخلوق .. فما يحكم عليه المخلوق بأنه زين قد يكون في حكم الله شين، وما يحكم عليه بأنه شين، قد يكون في حكم الله تعالى زين.

أما من يأبى إلا أن يستشرف خاصية التشريع، والتحليل والتحريم، والحكم على الأشياء بالتحسين والتقبيح من تلقاء نفسه وبغير سلطانٍ ولا إذنٍ

---

[2] صحيح سنن أبي داود: **4145**.

[3] ذكره ابن تيمية في الفتاوى: **164/28**.

من الله تعالى . سواء كان فرداً أو مجموعة أفراد . فقد جعل من نفسه نداً لله ﷻ في أخص خصائصه .. وزعم الألوهية والربوبية من أوسع أبوابها .. وقال ما قاله فرعون من قبل، كما قال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾القصص:38. أي ما علمت لكم من مشرع ومرجعٍ ترجعون إليه في شؤون الدين والدنيا غيري .. فأنا المألوه المطاع .. فالذي أراه حلالاً فهو الحلال، والذي أراه حراماً فهو الحرام .. وليس لكم سوى اتباعي وطاعتي والدخول في عبوديتي .. ولا رأي لكم إلا الذي أريكم إياه .. ولا رشاد تسلكونه إلا الذي أهديكم وأدلكم عليه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ غافر:29.

وقال تعالى:﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات:23-24. أي أنا الرب الذي أربيكم على ما أشاء من قوانين وشرائع وعقائد .. فلا رب أعلى مني تتربون وتنشأون على دينه وتعاليمه وقانونه غيري ... ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾النازعات:25. فأهلكه الله تعالى بالغرق عقوبة الأولى؛ وهي قوله﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾، والآخرة وهي قوله﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾.

وما أكثر الفراعنة والطغاة في زماننا الذين يزعمون هذا الزعم الكبير الذي زعمه فرعون من قبل .. فيقولون لشعوبهم: نحن المشرعين .. نحن الذين نحلل ونحرم .. فحق التشريع والتحليل والتحريم لنا لا لغيرنا .. فلا

مشرع ترجعون إليه غيرنا .. وما علمنا لكم من مشرع تحتكمون إليه في جميع شؤون حياتكم أفضل وأحسن منا .. وغير شرعنا .. نحن الذين نربيكم على ما نريد ونهوى من الشرائع والقوانين .. وليس لكم . أيها الشعوب .. أيها العبيد . سوى طاعتنا واتباعنا .. والدخول في عبادتنا .. ومن يعصينا منكم فهو خارج على القانون .. وعلى شرعية وقانون فرعون .. والويل كل الويل له!

ومع ذلك . وللأسف . فكثير من الناس لا يرون حرجاً في الدخول في طاعتهم واتباعهم فيما يشرعون، ويحللون ويحرمون .. ويحسنون ويقبحون .. ويسنون من القوانين المضاهية لشرع الله .. وهؤلاء سواء علموا أم لم يعلموا فقد دخلوا في عبودية هؤلاء الطغاة الآثمين، وأقروا لهم بالربوبية من دون الله ﷻ.

كما قال تعالى:﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ التوبة:31. وذلك عندما اتبعوهم وأطاعوهم فيما يشرعون، وفيما يحللون ويحرمون بغير سلطان ولا إذن من الله تعالى .. فتلك كانت ربوبية الأحبار والرهبان .. وبذلك اتخذوهم أرباباً من دون الله ﷻ.

وقال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾آل عمران:64.

فقوله تعالى:﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾؛ أي لا يتخذ بعضنا بعضاً مشرعين؛ نشرِّع لبعضنا البعض، نحلل ونحرم لبعضنا البعض .. نعبِّدُ بعضَنا لِبعض بتشريع بعضنا لبعض .. من دون الله وبغير سلطان ولا إذن من الله .. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾؛ أي أعرضوا وأبوا إلا أن يتخذوا بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ﴿ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، ونقول لهم كذلك:﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾يوسف:39.

ما أحوج البشرية في هذا العصر إلى هذا الخطاب .. إلى هذا النداء الرباني الخالد ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ ﴾.

جميع الأنظمة المعاصرة على اختلاف مسمياتها سواء الديمقراطية منها أم الديكتاتورية، الملكية أم الجمهورية .. يتخذون بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .. ويقررون ربوبية العبيد .. وهي جميعها تقوم على مبدأ تعبيد العبيد للعبيد .. ولو ظهرت هذه العبودية أحياناً بصورة لبقة مكللة بشيء من الحريات .. كما في بعض الأنظمة الديمقراطية .. لكنها في النهاية لا تخرج عن كونها أنظمة تقرر عبودية العبيد للعبيد ..!

ومنها: أن اللّه تعالى هو الخالق المالك لهذا الكون وما فيه ومن فيه: فهو ﷻ المتفرد بالخلق والملك لا شريك له، وبالتالي لا بد من

أن يتفرد في الأمر والحكم فيما يخلق ويملك .. كما أنَّه لا بد لهذا الكون ومن فيه وما فيه من أن يسير وفق مشيئة وحكم خالقه ومالكه ﷻ .. وليس وفق مشيئة وحكم غيره ممن لا يخلق ولا يملك شيئاً .. ولا يملك . في هذا الكون . نفعاً ولا ضراً .. والذي يُسلّم بأنَّ الله تعالى هو الخالق المالك لهذا الكون وما فيه، ومن فيه، لا بد من أن يُسلّم بأن هذا الكون ومن فيه لا بد من أن يسير وفق شرع الله تعالى وحكمه، وقانونه!

فالله تعالى لم يخلق هذا الكون وما فيه ومن فيه عبثاً من غير شريعة توضح الغايات والوسائل .. والطريق المنجي والموصل إلى ما فيه خيري الدنيا والآخرة!

لم يخلق الله تعالى هذا الكون وما فيه ومن فيه عبثاً ليسير وفق مشيئة وحكم وشرع غيره ممن لا يخلق ولا يملك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾المؤمنون:115-116.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات:56.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ . أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾البلد:4-10.

فالذي يخلق ويملك هو الذي له كامل الحق في أن يُشرِّع ويقنن لمن يخلق ويملك .. أما من لا يخلق ولا يملك لا يحق له أن يشرع ويقنن لما لا يملك ولا يخلق.

كيف يليق بعقل الإنسان أن يُسلِّم . ولا بد له أن يُسلِّم . بأن الله تعالى هو خالقنا ومالكنا ورازقنا .. وخالق ومالك هذا الكون وما فيه ومن فيه .. ثم في المقابل الذي يمضي في هذا الكون .. في هذه المملكة الواسعة الشاسعة التي تتسع لجميع المخلوقات .. حكم وشرع غيره، من لا يخلق ولا يملك شيئاً من هذا الكون؟!

كم هو مستهجن ومستقبح أن يأتي جاهل بصنعة السيارات . مثلاً . ليقول لصانعها تنحى جانباً فأنا الذي أحدد أنظمتها وقوانينها وسرعتها، لا أنت .. فكيف بهذا الجاهل الضعيف لو قال للخالق ﷻ الذي خلق هذا الكون الفسيح وما فيه ومن فيه فأحسن الخلق على أجمل وأكمل صورة .. أنا الذي أشرِّع وأقنن لهذا الكون وما فيه ومن فيه، لا أنت، وهذا الكون لا بد من أن يسير وفق شرعي وقانوني ومشيئتي وليس شرعك وقانونك ومشيئتك .. ألا ينبغي أن يكون أكثر استهجاناً .. ومعارضة للنقل الصحيح، والعقل السليم .. وكل منطق سليم!

كيف نستهجن الأول ولا نستهجن الآخر وهو أكثر من الأول معارضة لكل عقل ونقل، ومنطق سليم؟!

ونقول كذلك: أن هذا الإنسان من جملة من خلقهم الله تعالى في هذه الأرض .. وبالتالي لا بد له من أن يعيش وفق أمر وشرع هذا الخالق ﷻ وحده .. يستأذنه في كل شيء .. يستأذنه فيما يفعل وفيما لا يفعل .. وفيما يُحل وفيما يُحرم .. وفيما يأكل ويشرب وفيما يدع من ذلك .. إذ لا يليق بالإنسان أن يكون مربوباً مملوكاً ومخلوقاً لرب واحد .. وهذا الرب له كامل الفضل عليه؛ يتفضل عليه بالنعم التي لا تُحصى .. وهو يعيش في مملكته وعلى مائدته على مدار الوقت لا قدرة له على الاستغناء عنه ثانية واحدة .. ثم هذا الإنسان يكفر الفضل والنعم ويجحدها ليعيش وفق مشيئة وشرع أرباب وآلهة مزيفة ضعيفة جاهلة لا تخلق ولا تملك شيئاً .. لا تملك نفعاً ولا ضراً؟!

فالذي لا يخلق ولا يملك شيئاً، بل ولا يملك لنفسه . فضلاً عن أن يملك لغيره . نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله .. فالعجز والضعف والنقص يُحيط به من كل جوانبه .. وهو مخلوق مربوب مملوك لله تعالى وحده .. فمن كان كذلك لا يستحق أن يكون رباً ولا مشرعاً .. كما لا يليق به أن يعلو قدر ومقام العبودية لخالقه ومالكه وسيده .. ليمارس . جهلاً وظلماً وعدواناً وطغياناً . خصائص الربوبية والألوهية .. ويُخاصم الخالق ﷻ في صفاته وخصائصه!

هذا المعنى قد أشار إليه القرآن الكريم باستفاضة وتوسع، قال تعالى:﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾الأعراف:54. فالذي له الخلق، فله حصراً وقصراً الحكم والأمر ﴿ تَبَارَكَ اللّهُ﴾؛ أي تعاظم

وتعالى شأنه ﷻ عن أن يكون له شريك في الخلق أو شريك في الحكم والأمر .. وهو ﴿ ربُّ العالمين ﴾. فمن سلّم بأن لله الخلق .. لا يُستحسن منه بعد ذلك أن يُجادل فيمن يكون له الأمر!

وقال تعالى:﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الأعراف:**191**. وهذا سؤال تقريعي استنكاري موجه لكل مشرك؛ أي كيف تتوجهون بالعبادة والطاعة والتحاكم إلى شرع من لا يخلق شيئاً، وهو مخلوق مربوب شأنه شأن أي مخلوق .. فتشركونه مع الله، وتجعلون منه نداً للخالق سبحانه وتعالى .. فهذا لا ينبغي، ولا يليق بالعقلاء، ولا بمن يحترم نفسه وعقله!

وقال تعالى:﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾النحل:**17**. هل يستويان مثلاً الذي لا يخلق فيُعبَد ويُطاع، ويُرد له الأمر كمن يخلق وله الخلق كله ﷻ ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾؛ أي تتنبهون فتعلمون أن المتفرّد بالخلق؛ وهو الله تعالى وحده هو الذي يجب أن تفردوه وتخصوه بالعبادة والطاعة والتحاكم إلى شرعه دون أحدٍ سواه؟!

وقال تعالى:﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ الصافات:**125**. يا سبحان الله يعبدون بعلاً .. يُطيعون بعلاً .. يتحاكمون إلى بعلٍ .. يدعون ويستغيثون ببعلٍ .. الذي لا يخلق، ولا يقدر على شيء .. ويذرون أحسنَ الخالقين؟!

وبعلٌ هذا صنم كان يُعبَد من دون الله .. وما أكثر البعول في زماننا التي تُعبد من دون الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾الحج: 73.

فقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب من الله تعالى إلى كل الناس وإلى يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم؛ فالمؤمن يزداد بهذا المثل إيماناً وهدىً، والكافر المعاند يزداد به كفراً وضلالاً إلا من شرح الله صدره للإسلام.

﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾؛ فافهموه، وتأملوه، وتدبروه .. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فتعبدونهم من دون الله؛ تتوجهون لهم بالدعاء، والطاعة، والتحاكم، وغير ذلك مما يدخل في معنى ومسمى العبادة .. فهؤلاء ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ومن كان بهذا العجز والضعف لا يصلح أن يكون مألوهاً معبوداً من دون الله .. وبالتالي كيف تتخذونه إلهاً ورباً من دون الله تُحلون ما يُحل، وتُحرمون ما يُحرم، وتُحسنون ما يُحسن، وتُقبحون ما يُقبح، وهو أضعف من أن يخلق ذباباً أو أن يستنقذ ما يسلبه

الذباب منه .. فهذا لعمر الحق هو عين الضلال المبين، وعين الظلم، والجهل، والجحود!

وقال تعالى:﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾لقمان:11.

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ فكل هذا الكون الفسيح ومن فيه وما فيه من اتقانٍ وإبداع وجمال وعظمة هو من خلق الله .. وهو دليل على عظمة الخالق ﷻ .. وأنه الإله والرب المستحق للعبادة وحده .. ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ لا شيء .. وهم أعجز من أن يخلقوا شيئاً .. وبالتالي كيف يُعبَدون من دون الله تعالى .. كيف تتخذونهم آلهة وأرباباً وهم بهذا الوصف من العجز والضعف .. وتذرون أحسن الخالقين؛ الخالق لهذا الكون وما فيه ومن فيه .. المتفضل على عباده بالنعم التي لا تُحصى .. صدق الله العظيم ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعبدونهم ويُطيعونهم ويتحاكمون إليهم من دون الله .. رغم أن هذه الآلهة ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾الفرقان:3. وهذا عين الضلال، والجهل، والجور!

وقال تعالى:﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ الذين تعبدونهم، وتطيعونهم، وتحتكمون إلى شرائعهم وقوانينهم من دون الله ﴿مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾؟ لا أحد منهم يقدر على شيءٍ من ذلك .. ولكن ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾. وقوله تعالى ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي كيف تُصرَفون عن عبادة وطاعة الله تعالى وحده مع قيام الدليل القاطع على حقه عليكم؛ وهو أنه تعالى هو الذي ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾، إلى عبادة وطاعة من ليس له حق عليكم، رغم قيام الدليل القاطع على عجزه وبطلان إلاهيته المزعومة، بدليل أنه لا يقدر على أن ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وقال تعالى:﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الرعد:16.

فقوله تعالى:﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ ﴾ أي بعد هذا الإقرار والتسليم بأن الله هو رب السماوات والأرض والذي يُسلِّم به الجميع ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ تعبدونهم وتطيعونهم وتتبعونهم

فيما يشرعون لكم من دون الله .. وهم في حقيقتهم ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً ﴾؛ أي جلب نفعٍ، ﴿ وَلاَ ضَرّاً ﴾؛ أي ولا دفع ضرٍّ، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى ﴾ المشرك الضال الذي ضل طريق التوحيد، وعبد آلهة عاجزة ضعيفة ﴿ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ﴾ ولا لغيرهم ﴿ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ﴾، هل يستوون هؤلاء ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ المؤمن الموحد الذي يعبد الله تعالى . ربه ورب السماوات والأرض . على بصيرة وعلم ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ ﴾ ظلمات الشرك والكفر؛ والظلمات ذُكرت بالجمع لأن الشرك ليس نوعاً واحداً وصورة واحدة بل هو أنواع وأشكال وصور متعددة تعلو بعضها بعضاً فتزيد الظلمة ظلمات ﴿ وَالنُّورُ ﴾ التوحيد والإيمان؛ فأفرد في الذكر لأن طريق التوحيد واحد، ولأن الحق واحد، والمعبود بحق واحد، والطريق الموصل إليه واحد، ﴿ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء ﴾ أنداداً يُماثلونه في خصائصه وصفاته ﴿ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي هل من هؤلاء الأنداد الذين تعبدونهم وتطيعونهم من دون الله قد خلق شيئاً فشارك الله في الخلق فتشابه الخلق على المشركين فلم يحسنوا التمييز بين الذي خلقه الله تعالى وبين الذي خلقه هؤلاء الشركاء .. لو كان الأمر كذلك لوجد لكم عذراً أو تأويلاً .. أما أنه لم يحصل شيء من ذلك، وقد عُلم أن المتفرد بالخلق هو الله تعالى وحده فلا عذر لكم .. وحينئذٍ نقول لكم ما أمرنا الله أن نقوله لكم:﴿ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

صيغة عامة شاملة لكل شيء؛ فلا يخرج شيء في هذا الكون الفسيح عن كونه مخلوق لله ﷻ ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

وكذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّه ﴾؛ أبعد هذا الإقرار والتسليم بأن الله تعالى هو الخالق، المالك، الرازق المتصرف بهذا الكون وما فيه ومن فيه وفق مشيئته سبحانه وتعالى .. تعدلون عن عبادته وطاعته والتحاكم إلى شرعه، إلى عبادة وطاعة غيره ممن لا يملك شيئاً من خصائص وصفات الخالق المالك الرازق سبحانه وتعالى ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾يونس:31. ﴿ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا ينبغي أن يحملكم ذلك على أن تقلعوا عن الشرك .. وعبادة وطاعة الأنداد والشركاء .. وتدخلوا في توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته؟!

وقال تعالى:﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾؛ سيجيبون ويقرون بأنه الله سبحانه وتعالى هو الذي يفعل كل ذلك .. وهم بعد هذا الإقرار والتسليم .. يشركون بالله؛ فيعدلون عن عبادته وطاعته إلى عبادة وطاعة الأنداد .. فيأتي السؤال التقريعي التوبيخي ﴿ أَإِلَهٌ ﴾، أي كيف بعد هذا الإقرار والتسليم منكم بأن الله تعالى هو الذي ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء ﴾ تتألهوا آلهةً أخرى لا يقدرون على

فعل شيء من ذلك، فتعبدونهم، وتطيعونهم، وتحتكمون إلى شرعهم ﴿ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ النمل: **60-64**. وأنَّى لهم أن يأتوا بالبرهان على صحة ما هم عليه من شرك، وجَهل، وباطل وظلم ..!

ومنها: أن اللّه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا:

والتي من مقتضاها أن لا يصدر عنه ﷻ إلا الكمال؛ العدل المطلق، والحق المطلق، والخير المطلق، والجمال المطلق، والمصلحة المطلقة .. فالشرائع والقوانين انعكاس عن صفات صاحبها؛ فإن كان صاحبها له صفات الكمال، كانت شرائعه وأحكامه لها صفة الكمال .. وإن كانت صفاته مجبولة على النقص، والجهل، والعجز .. جُبلت شرائعه وقوانينه بما جُبل به من النقص، والجهل، والعجز .. ولا بد!

فالذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا هو الذي ينبغي أن يحكم، وحكمه وشرعه هو الذي يجب أن يمضي في البلاد والعباد، وليس حكم غيره؛ ممن لا يملك شيئاً من تلك الأسماء الحسنى، والصفات العليا .. بل تلاصقه صفات النقص والعجز والضعف، والقصور، والجهل .. ومهما ظهر أنه أوتي من العلم .. فهو في النهاية مختوم بخاتم:﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾الإسراء:85. ومن كان كذلك فإن حكمه سيتسم بالنقص والخطأ والجهل والظلم .. والبلاد والعباد التي تخضع لحكمه وشرعه تكون عبارة عن حقل تجارب لقوانينه وتشريعاته الخاطئة الجائرة التي تتغير وتتبدل بين الفينة والأخرى بحسب ما تملي عليه أهواؤه وعقله القاصر .. ومصالحه الذاتية .. وكلما ظهر له خطؤه وقصوره فيم قنّن وشرّع!

فالأنظمة التي تحكمها القوانين الوضعية .. كل الأنظمة؛ الديمقراطية والديكتاتورية منها سواء .. لا تعرف الثبات ولا القرار في التشريعات وسن القوانين .. فهي تعيش عملية تغيير وتبديل مستمرة لقوانينها وشرائعها؛ فما يستحسنونه اليوم يقبحونه ويجرمونه غداً، وما يقبحونه ويجرمونه غداً قد يستحسنونه ويجمِّلونه بعد غدٍ . وهكذا إلى مالا نهاية ما داموا يتصدرون موقع الحكم ومَهمة سن القوانين والتشريعات . بحسب ما يظهر لهم، وتتراءى لهم المصالح والأمور .. وبحسب ما تملي عليهم أهواؤهم وعقولهم القاصرة الجاهلة .. والإنسان الذي تحكمه تلك القوانين والشرائع الوضعية هو وحده

الذي يدفع ضريبة جهل وقصور أولئك الأرباب والرهبان، وجهل وقصور وظلم قوانينهم وشرائعهم .. وما أعظمها وأفدحها من ضريبة؛ تكون في كثير من الأحيان في الدين، والنفس، والعِرض، والمال!

عندما يقولون هذا القانون الوضعي خاطئ وظالم، ولا بد من أن نستبدله بقانون آخر .. مثلهم كمثل من يقول: قد تبين أن هذا الدواء قاتل وسام لا بد من أن نستبدله بدواء آخر .. وإلى حين ما يتم اكتشافه، واستبداله .. يكون قد مات وتضرر بسببه كل من جرى عليه هذا الدواء السّام القاتل وجربه .. والقانون الخاطئ الظالم الذي يعم جميع الناس في الدولة والمجتمع لهو أشد فتكاً وضرراً على البلاد والعباد من الدواء الذي يُكتشف فيم بعد بأنه داء وليس دواء!

صدق الله العظيم إذ أمرنا أن نقول لهؤلاء المشركين ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ ﴾؛ على قصوركم وجهلكم، وعجزكم، وضعفكم ﴿ أَعْلَمُ ﴾؛ بمصلحة البلاد والعباد وبما ينفعهم ويضرهم ﴿ أَمِ اللَّه ﴾البقرة:140. الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا؟!

يأتي الجواب في آية أخرى ليقرر حقيقة دامغة خالدة لا تقبل المراء ولا الجدال:﴿ وَاللَّه يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾البقرة:216.

وقال تعالى:﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾؛ أي لا مألوه ولا معبود ولا مُطاع ولا حاكم بحق إلا الله ﷻ .. لماذا؟ الجواب يأتي مباشرة لأنه ﴿ الْحَيُّ ﴾؛ الذي لا يموت أبداً، وله دائم البقاء أزلاً وأبداً .. ولأنه ﴿الْقَيُّومُ ﴾؛ القائم على شؤون وتدبير ورعاية خلقه .. يرعاهم بلطفه، وفضله، وعدله، ورحمته .. ومن تمام وكمال قيوميته أنه ﷻ ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾؛ أي لا يغلبه النعاس، ولا تعتريه غفلة ولا سهو ولا نوم، بل هو القائم على خلقه بالحفظ والرعاية، لا يخفى عليه شيء .. ولا قيام للخلق إلا به ﷻ، وهو مع ذلك كله له ملك ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾البقرة:255.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل لهؤلاء الأرباب والمشرعين الذين يشرعون ويحلون ويحرمون بغير سلطان ولا إذن من الله تعالى .. شيء من تلك الأسماء والصفات والخصائص التي يختص بها الخالق ﷻ .. فإن كان الجواب لا .. ولا بد من أن يكون لا .. يأتي السؤال الآخر: كيف إذاً تُطاع فيم تُشرع وتحلل وتحرم .. ويُترك أحسن الخالقين الذي له الأسماء الحسنى والصفات العليا؟!

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأنه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يعلم السر والعلَن، ما خفي وما ظهر، لا

يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الحشر:22.

وكذلك قوله تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأنه ﴿الْمَلِكُ﴾؛ السيد المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، ﴿الْقُدُّوسُ﴾؛ الطاهر المبارك المتنزِّه عن صفات النقص والمخلوقين، ﴿ السَّلَامُ﴾؛ السالم من جميع العيوب والنقائص؛ لكماله في ذاته وأفعاله، ﴿الْمُؤْمِنُ﴾؛ الذي يصدِّق الصادقين بما يُقيم لهم من شواهد صدقهم، والذي يؤمِّن خلقه من أن يظلمهم، ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾؛ الشاهد على خلقه بأعمالهم، الرقيب عليهم، ﴿ الْعَزِيزُ ﴾؛ القاهر الذي لا يُغلَب ولا يناله ذل، ﴿ الْجَبَّارُ ﴾ الذي جبر خلقه على ما يشاء، المصلح لأمور خلقه المتصرف فيه بما فيه صلاحهم، العظيم إذا أراد أمراً فعله، ﴿ الْمُتَكَبِّرُ ﴾؛ الذي له الكبرياء والعلو، المتعالي عن كل سوء، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾؛ تنزه الخالق وتعالى وتعاظم ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾الحشر: 23[4]. فيتخذون معه . ومن دونه . أنداداً وشركاء فيعبدونهم ويطيعونهم، ويتحاكمون إلى شرائعهم وقوانينهم .. وهم لا يملكون شيئاً من تلك الصفات والأسماء الحسنى الآنفة الذكر والتي يختص بها

[4] انظر معاني وتفسير أسماء الله الحسنى الواردة في الآية، تفسير ابن كثير.

الخالق وحده ﷻ .. بل صفات النقص والعجز والجهل تلاحقهم طيلة حياتهم!

وقال تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لماذا ..؟ لأن ﴿ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ طه:8. ومن أسماء الله الحسنى: العليم، العالِم، الخبير، القدير، الجميل، الحق، الحكيم، الحكَمُ .. الذي لا يقضي ولا يحكم ولا يأمر إلا بالحق المطلق، والعدل المطلق، والخير المطلق .. والجمال المطلق .. والذين من دونه لا يقضون بشيء؛ لأنهم ليس لهم شيء من تلك الأسماء وتلك الصفات .. بل هم مجبولون على صفات القصور والضعف، والجهل، والعجز!

كما قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾؛ لأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾؛ فيعبدونهم ويطيعونهم ويتحاكمون على شرائعهم من دون الله .. ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾؛ معتبر وذي بال .. ولو قضوا وحكموا فقضاؤهم وحكمهم ليس بشيء؛ لأنه صادر عن جهل وعجز وضعف وقصور ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾غافر:20.

وقال تعالى:﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾المائدة:50. فلا أحسن من الله تعالى حكماً ولا قضاء؛ لأن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا والتي من مقتضياتها أن لا

يقضي ولا يحكم إلا بالأحسن والأجمل والأفضل والأنفع .. وكل حكم غير حكم الله، ويكون مغايراً لحكم الله ﷻ فهو من حكم الجهل والجاهلية والهوى الذي يجب اعتزاله والبراء منه؛ لأنه لا يأتي بخير .. وفيه من القصور والنقص كقصور ونقص وعجز صاحبه ولا بد!

وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ﴾؛ حصراً وقصراً ﴿ هُوَ الْهُدَى﴾؛ الذي ليس بعده إلا الضلال ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم﴾؛ وهي كل ما يشرعونه ويحسنونه ويقبحونه ويرتأونه من عند أنفسهم بغير سلطان من الله، وبعيداً عن هدى الله ﴿بَعْدَ الَّذِى جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾؛ أي من الدين والتوحيد، والشرائع ﴿مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾البقرة:120.

وكذلك قوله تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾الجاثية:18.

فدلت الآية الكريمة أن كل صاحب شرعٍ يُخالف بشرعه شرع الله تعالى فهو صاحب هوى، ومن الذين لا يعلمون ..!

ومنها: لأن الحكم بما أنزل اللّه إيمان وتوحيد، وعدل، وخلافه كفر، وردة، وظلم وفسوق: وجحود وخروج من الدين .. فالمسألة من هذا الجانب لا تقبل عند المسلمين الاستهانة أو التراخي أو التأخير أو أنصاف الحلول .. أو التفاوض .. فإما الحكم بما أنزل الله فحينئذٍ

يكون الإيمان والإسلام .. ويكون العباد داخلين في توحيد وعبادة الله تعالى وحده .. وإما الحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت وشرائع الطاغوت .. فحينئذٍ يكون الكفر والظلم والفسوق، والشرك، والردة، والخروج من الإسلام .. وتكون العبودية للطواغيت.

كما قال تعالى:﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء:65.

قال ابن القيم رحمه الله:" أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع، وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض "ا– هـ.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ النساء:59.

أفادت هذه الآية الكريمة معانٍ عدة:

منها: وجوب طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة؛ لأن النبي ﷺ يبلغ عن الله ﷻ، وهو لا ينطق عن الهوى كما قال تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾النجم:3-4.

ومنها: وجوب طاعة أولي الأمر من المسلمين طاعة مقيدة بطاعة الله تعالى، وفيما ليس فيه معصية؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﷻ.

ومنها: في حال حصول النزاع مع أولي الأمر، أو أولي الأمر بعضهم مع بعض .. يجب رد النزاع والتحاكم إلى الله والرسول؛ أي إلى الكتاب والسنة بعد وفاة الرسول ﷺ.

ومنها: أن السنة محفوظة كحفظ الله تعالى لكتابه، وأن السنة من الذكر الوارد في قوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر:9. إذ يستحيل أن يأمر الخالق ﷻ عباده بأن يردوا نزاعاتهم إلى شيء غير محفوظ .. ولا موجود.

ومنها: أن الكتاب والسنة فيهما حل لكل نزاع أو تنازع يقع فيه البشر .. إذ يستحيل أن يأمر الخالق ﷻ عباده بأن يردوا نزاعاتهم إلى شيء ثم لا يجدوا في هذا الشيء حلاً لما قد تنازعوا فيه.

ومنها: أن من لوازم وشروط صحة الإيمان رد التنازع إلى الكتاب والسنة، فإذا انتفى الرد، انتفى معه الإيمان مباشرة، وهو المستفاد من قوله

تعالى:﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾. فمن علامات صدق الإيمان بالله واليوم الآخر رد التنازع إلى الكتاب والسنة .. وليس إلى شيء سواهما.

وقال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء:60. فاعتبر القرآن إيمانهم زعماً لا حقيقة له في الصدور .. وذلك بسبب عدولهم عن حكم الله ﷻ وعن التحاكم إلى شرعه .. إلى التحاكم إلى الطاغوت؛ وكل حاكم لا يحكم بما أنزل الله .. أو شرعٍ غير شرع الله ﷻ فهو طاغوت .. يجب الكفر به، واجتنابه، والبراء منه كما قال تعالى﴿ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ﴾. وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾النحل:36. ومن اجتناب الطاغوت اجتناب التحاكم إليه، وإلى شرعه، وقانونه. ونحوه قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾الزمر:17. أن يعبدوها في النسك، والنذر، والتحاكم .. وكل ما يدخل في معنى ومسمى العبادة.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .. فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .. فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المائدة:44-45-47. والمراد من الكفر، والظلم، والفسق الوارد في

الآيات، الكفر الأكبر، والظلم الأكبر، والفسق الأكبر؛ لأن هذه الآيات نزلت في كفار ومشركي أهل الكتاب من اليهود، كما قال ابن عباس ﷺ:"﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾، إلى قوله:﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود؛ خاصة في قريظة والنضير[5]. وما نزل في اليهود وطريقتهم في الحكم بغير ما أنزل الله، يُستبعد أن يُراد منه الكفر الأصغر، والظلم الأصغر، والفسق الأصغر؛ كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات:2. أي خشية أن تحبط أعمالكم ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، فإذا كان مجرد رفع الصوت فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم مدعاة لحبوط العمل، ولا يحبط العمل إلا الكفر والشرك، كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

---

[5] صحيح سنن أبي داود:3053. مرجئة العصر يخفون هذا الأثر عن ابن عباس، ويعرضون عنه .. ويكثرون من الإشارة إلى قوله الآخر في الأثر:" كفر دون كفر "؛ رغبة منهم في الجدال عن طواغيت الحكم والظلم!

ومن أراد أن ينصف ابن عباس رضي الله عنه، ويعرف مذهبه في المسألة لا بد من أن يأخذ الأثرين الواردين عنه معاً، ويعمل على التوفيق فيم بينهما.

عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾الزمر:65. وقال تعالى:﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الأنعام:88. فمن باب أولى أن يحبط عمل من يرفع حكمه وقانونه وشرعه، على حكم، وقانون، وشرع النبي ﷺ.

لذا كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا من غير ممانعة ولا معارضة، ولا حرج في أنفسهم، ويسلموا تسليماً، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ النور:51. والتحاكم إلى الله ورسوله؛ يكون بالتحاكم إلى الكتاب والسنة بعد وفاة النبي ﷺ.

هذا قول وحال المؤمنين .. بينما قول وحال المنافقين الذين في قلوبهم مرض، مع قضية التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ تتسم بالإعراض، والمعارضة، والصد .. كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ النساء:61. وقال تعالى:﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ النور:48.

ومنها: لأن الحكم بما أنزل الله فيه حياة: حياة حقيقية للروح والمادة معاً .. حياة آمنة سعيدة مطمئنة تحقق التوازن المطلوب بين الروح

والجسد معاً .. حياة للفرد، والجماعة، والشعوب، والأمم .. حياة للبلاد والعباد.

الحكم بما أنزل الله .. يعني تحرير العباد من عبادة العباد .. وأطرهم إلى مكمن عزتهم وسعادتهم وكرامتهم، ونجاتهم؛ إلى عبادة رب العباد؛ الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

الحكم بما أنزل الله تعالى .. يعني إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والإيمان .. ومن ظلم الأديان وجورها إلى عدل الإسلام ورحمته.

الحكم بما أنزل الله .. يعني العدل المطلق في الأرض .. يعني إنصاف المظلوم من الظالم مهما كان الظالم شريفاً ورفيعاً وكان المظلوم وضيعاً وضعيفاً .. وأيّاً كان انتماء الظالم والمظلوم.

الحكم بما أنزل الله .. يعني تحقيق السلام الحق في الأرض .. السلام الذي يقوده .. ويرعاه .. ويفرضه الحق وأهله .. أما الباطل ومعه أهله لا يملكون السلام الحقيقي والعادل .. ولا مقوماته .. وفاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه .. وواقعنا المعايش خير شاهد على ذلك.

الحكم بما أنزل الله .. يعني إيقاف هذا الدمار، والخراب، والفساد، والظلم، والعدوان الذي يضرب في الأرض؛ في جميع أطرافها وأقطارها.

الحكم بما أنزل الله .. ضرورة ملحة لا منجاة للأرض ومن عليها إلا به .. فإما الحكم بما أنزل الله وإما الدمار والغرق والهلاك.

مُعْوَل الخراب والفساد والإجرام والتدمير يعمل عمله في الأرض والمجتمعات .. ومنذ زمن بعيد .. ولا بد من إيقافه .. ولن يقف إلا بالحكم بما أنزل الله .. والسهر على تطبيق شرع الله تعالى في الأرض، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فقال ﷺ:" مثل القائم على حدود اللّه والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " البخاري.

لا بد من أن يؤخذ على أيدي المجرمين المفسدين المخربين . أيَّاً كانوا وكان موقعهم السيادي . بالمنع والزجر، والقصاص الشرعي .. وإلا غرقت السفينة، وهلكوا جميعاً .. وهلكت معهم البلاد والعباد!

وقال تعالى:﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة:179. فالقِصاص الشرعي وإن بدت منه نوع قصاوة وشدة . لا بد منها . على فرد أو مجموعة أفراد آثروا إلا أن يسيروا في طريق الخطأ

والجريمة .. والشر .. إلا أن فيه منجاة وحياة حقيقية للمجتمعات والجماعات، ولملايين الناس.

تأملوا النتيجة المفزعة التي آلت إليها المجتمعات بسبب غياب العمل بالقصاص الشرعي .. تأملوا كم هي جرائم القتل، والسطو والنهب، والاغتصاب .. التي تحصل في اليوم الواحد، بل في الساعة الواحدة، بل في الدقيقة الواحدة .. وبصورة لم تعرفها البشرية من قبل!

تأملوا حجم الفساد والخراب والمجون المنتشر في الأرض كل الأرض .. وفي البر والبحر والجو سواء!

تأملوا حجم الظلم المنتشر على الرجال والنساء سواء .. تأملوا السجون وحجم الانتهاكات لحرمات وحقوق الإنسان!

تأملوا كم طفل يموت في العالم في الدقيقة الواحدة بسبب الجوع أو المرض أو عدوان المعتدين الظالمين .. بسبب سطو القوي على الضعيف .. بينما فريق آخر من المسرفين قِططهم وكلابهم تموت بسبب التخمة والإسراف والتبذير!

تأملوا كيف أن شرائع الطاغوت تنتصف وتنتصر للقوي الظالم المعتدي .. لأنه قوي .. وتهمل وتخذل الضعيف المظلوم .. لأنه ضعيف ..

إذ لا حياة للضعفاء في أرض تحكمها شريعة الغاب .. تحكمها شريعة الطاغوت!

هذا كله وغيره يحصل .. بسبب غياب القصاص الشرعي .. وغياب الحكم بما أنزل الله على جميع الميادين والمستويات.

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾الشورى:52. فالعمل بالقرآن والحكم به .. فيه روح وحياة للبشرية .. وإذا كان الأمر كذلك فإن مفهوم المخالفة يقتضي أن عدم الحكم بالقرآن وبالشريعة التي نزل بها القرآن الكريم .. يعني الموت والخراب والدمار والهلاك .. وكل ما هو مضاد للحياة الحقيقية.

وقال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء ﴾؛ من كل داء وبخاصة منها الأدواء المعنوية الروحية، الأخلاقية ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنهم قابلوا التنزيل بالتصديق والإيمان فانتفعوا به ، ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾الإسراء:82. لأنهم قابلوا التنزيل بالجحود والإعراض فلم يستفيدوا منه، بل زادهم . تكذيبهم بالتنزيل وإعراضهم عنه . خسارة إلى خسارتهم بكونهم ظالمين.

وفي الحديث فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" إقامة حدٍّ من حدود اللّه خيرٌ من مطر أربعين ليلة في بلاد اللّه ﷻ "[6].

وقال ﷺ:" حدٌّ يُعمل به في الأرض، خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحاً "[7]. فرغم أن الماء والمطر فيه حياة للأرض وأهل الأرض .. وأن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي .. إلا أن العمل بحد من حدود الله خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين يوماً .. وإذا كان الأمر كذلك مع حدٍّ واحد من حدود الله .. فما يكون القول لو تم العمل بمجموع حدود وأحكام الله .. لا شك أن الخير حينئذٍ يتضاعف، لا يمكن أن يُقدَّر ولا أن يُحصى، كما قال تعالى:﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً﴾ الجن:16.

وقال تعالى:﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾هود:52.

وقال تعالى:﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾نوح:10-12.

---

[6] صحيح سنن ابن ماجه:2056.

[7] صحيح سنن ابن ماجه:2057.

وقال تعالى:﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق:2–3. ومن التقوى . التي يعقبها الفرج والمخرج من كل كرب وضيق . الحكم بما أنزل الله.

ومع ذلك يوجد من المنافقين من بني جلدتنا مَن يخوف الناس الحكمَ بما أنزل الله .. ومن قيام دولة تحكم بما أنزل الله .. يخوفونهم عواقب الحكم بما أنزل الله .. وأنه سيجلب عليهم العداوات .. والفقر .. والخراب .. وهؤلاء هم العدو .. هم الشيطان ينطق بلسانهم، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾آل عمران:175. ﴿ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾التوبة:30.

ـ تنبيه: لكي نستفيد من الحكم بما أنزل الله .. من شرع الله تعالى .. لا بد من أن نؤمن به .. ونخضع لسلطانه وحكمه .. ونسلم له تسليماً .. أما من كفر به، وقابله بالصد والإعراض .. والكيد والمؤامرات .. فأنّى يستفيد منه لو التمس منه الدواء والحلول لأمراضه ومشاكله .. فهو مثله . في هذه الحالة . كمن يضع الدواء على غير موضع الداء .. وكمن يأتي الشيء وضده في آنٍ معاً![8].

[8] يوجد فريق من الناس، يُطالبون الإسلام بأن يعالج مشاكل مجتمعات، وأنظمة .. لا تؤمن به .. بل تعاديه وتحاربه .. وتحارب أهله .. على اعتبار أن الإسلام فيه حل وعلاج لكل مشكل .. وهؤلاء بطلبهم هذا يُخالفون النقل، والعقل!

قال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنهم آمنوا به .. وارتضوه حكماً لأنفسهم في جميع شؤون حياتهم الخاصة والعامة سواء ﴿ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾الإسراء:82. لأنهم كفروا به، وأعرضوا، وصدوا عنه .. فأنى يستفيدون منه؟!

وقال تعالى:﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى ﴾؛ هدى لكل حق، وخير، وعدل .. لكن لمن؟ يأتيك الجواب:﴿ لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾البقرة :2-3. أما الظالمون الذين لا يؤمنون بالغيب، ولا يقيمون الصلاة، ولا ينفقون مما رزقهم الله .. فأنى أن ينتفعوا من هذا الكتاب المنزّل العظيم؟!

ونحوه قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التوبة:124-125. فقوله:﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾؛ أي كفراً إلى كفرهم، وباطلاً وظلماً إلى باطلهم وظلمهم؛ لأنهم قابلوا ما يتنزّل من الآيات والسور بالكفر والجحود والإعراض .. فأضافوا إلى تكذيبهم السابق لما قد تنزل من الكتاب تكذيباً جديداً آخر لما قد تنزل من السور والآيات .. وإلى

إعراضهم السابق إعراضاً جديداً آخر لجديد التنزيل .. فازدادوا بذلك كفراً وضلالاً، وعذاباً.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللّهُ به من الهُدَى والعِلْمِ، كمَثَلِ الغيثِ الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ، أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفع اللّهُ بها الناسَ، فشَرِبُوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلك مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللّهِ، ونفعه ما بعثني اللّهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ به " متفق عليه.

فمثل النقيّة التي قبلت الماء، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ .. مثل المؤمن الذي قبل الإيمان والعلم فانتفع به لنفسه، ونفع به الآخرين .. وهذا أحسن الناس.

ومثل الأجادب . الأرض الصلبة التي لا ينضب منها ماء، ولا تُنبت كلأً . فأوعت وجمعت الماء من غير كلأ .. مثل من يجمع العلم لينتفع به الآخرون، من دون أن ينتفع به لنفسه .. وهذا ممن يُقال فيه:﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾الصف:3. وقوله تعالى:﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾الجمعة:5.

ومثل القيعان التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً .. مثل المنافقين والكافرين .. الذين لا يقبلون من الهدى والعلم شيئاً .. فلا هم انتفعوا، ولا هم أفادوا ونفعوا غيرهم .. وهؤلاء أسوأ الناس!

وبعد، لأجل جميع الأوجه الآنفة الذكر أعلاه . وواحد منها يكفي . قلنا ونقول: بوجوب الحكم بما أنزل الله في جميع شؤون الحياة الخاصة منها والعامة .. وأن قضية الحكم بما أنزل الله، قضية عقدية كليّة أساسية لا يمكن تجاوزها، أو التغاضي عنها، من أجل مكاسب ومصالح أخرى ..!

فإما الحكم بما أنزل الله؛ فحينئذٍ تكون النجاة .. وتكون الحياة المفعمة بالعزة والكرامة، والحرية، والعدل، والأمن والأمان .. وإما الحكم بغير ما أنزل الله؛ فحينئذٍ يكون الكفر، والظلم، والفسوق .. وتكون العبودية للعبيد .. ويكون الدمار والهلاك!

قضية الحكم بما أنزل الله لا تقبل أنصاف الحلول .. ولا الوقوف وسطاً . كما يحلو للبعض . في منتصف الطريق؛ لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء .. كما لا تقبل القسمة بين الخالق والمخلوق .. هذا لله، وهذا لغيره .. هذا لله، وهذا لشركائهم .. لله ولشرعه المساجد والمعابد، والأحوال الشخصية .. وما سوى ذلك من شؤون الحكم والحياة لغير الله .. فحينئذٍ من يفعل ذلك، أو يرضى لنفسه هذا المنهج الضال .. نصيبه من كتاب الله تعالى، قوله تعالى:﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ

ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾البقرة:85. وقوله تعالى:﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ النساء:143.

ـ مسألة: صفة الحكم بما أنزل اللّه كيف تتم، ومن المسؤول عنها ..؟

أقول: الجميع ـ وكل بحسبه ـ يجب أن يحكم بما أنزل الله في نفسه، وماله، وفيم يرعى من الأشياء والأمور .. والجميع مسؤول عن إقامة شرع الله تعالى، والحكم بما أنزل الله .. بحسب موقعه ومكانته .. فالمرأة تحكم بما أنزل الله تعالى في نفسها، ومالها، وبيتها، وفيم استرعاها الله إياه، والرجل يحكم بما أنزل الله في نفسه، وماله، وأهله، وعمله، وفيم استرعاه الله إياه، والخادم يحكم بما أنزل الله في نفسه، وفي مال سيده، وما استُرعي عليه .. والحاكم أو الخليفة يحكم بما أنزل الله في نفسه، وحاشيته، ورعيته .. وما استؤمن عليه من شؤون البلاد والعباد .. كما أن على الجميع أن يُطالبوا بالحكم بما أنزل الله .. وأن يحرسوا الحكم بما أنزل الله من أي انتقاص، أو تهميش .. أو تجاوزات من قبل أي طرف أو فريق من الناس!

فقضية الحكم بما أنزل الله ليست مسؤولية الحاكم أو الخليفة وحسب .. ثم على البقية من الناس أن يناموا، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء

.. فهذا الفهم الخاطئ مردود بقوله تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن:16. فالتكاليف ـ كل التكاليف ـ بما في ذلك الحكم بما أنزل الله .. يجب أن تُؤتى، ويُعمل بها كل بحسب استطاعته وموقعه، فمن استطاع أن يُقيم حكم وشرع الله تعالى في نفسه، وأسرته .. أو عمله ومتجره، أو مزرعته، أو شركته، ومصنعه .. أو مدرسته ومعهده .. لا يُعذر لو تخلف أو قصّر فيم يستطيعه .. بحجة أن الحاكم أو الرئيس الحاكم للبلاد لم يحكم بما أنزل الله أو أنه مقصر في الحكم بما أنزل الله .. قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾المدّثر:38. وقال تعالى:﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾الأنعام:164. وقال تعالى:﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة:286.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:" كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيتِه، فالإمامُ راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، والرجلُ في أهلِه راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، والمرأةُ في بيتِ زوجِها راعيةٌ، وهي مسؤولةٌ عن رعيتِها، والخادمُ في مالِ سيدِه راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيتِه، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه " البخاري.

لا يوجد شخص يستطيع أن يقول عن نفسه أنه ليس مسؤولاً، ولا راعياً، ولا حاكماً على الاطلاق .. إذ لا بد من أن يكون حاكماً وراعياً بحسب موقعه، وصفته .. " فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه ".

ثم عندما الجميع يلتزم الحكم بما أنزل الله في نفسه، وبيته، وفيم يملك، ويستطيع .. حينئذٍ سيسهل الحكم بما أنزل الله على مستوى الحكومات والدول .. كما سيصعب على الحاكم، أو الإمام العام أن يتنكب عن الحكم بما أنزل الله .. وقد صدق من قال: أقيموا دولة الإسلام في أنفسكم وبيوتكم .. تقم في أرضكم، ودولكم.

وصلى الله على سيدنا ونبينا وقائدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عبد المنعم مصطفى حليمة
" أبو بصير الطرطوسي "

2012/11/8 م **1433/12/23 هـ**

www.abubaseer.bizland.com

كتب للمؤلف

- الأحكام السلطانيّة والسياسة الشرعية
- دفتر الثورة والثوار ... التحديث التاسع
- خواطرٌ وأفكارٌ في فقه الدعوةِ إلى الله
- المنهج في الطلب، والتلقي، والاتباع
- مُصْطَلَحَاتٌ ومَفَاهِيمٌ شَرْعِيَّةٌ عَلاهَا غُبَارُ تَأْوِيلاتِ وَتَحْرِيفَاتِ المُبْطِلِين
- أحكام ومسائل رمضانيَّة
- الزواج والطلاق في الإسلام، مسائل وأحكام
- دراسة نقدية أ و ملحوظات على كتاب" هَكذا علَّمتني الحياة " للدكتور مُصطفى السِّباعِي
- صَيْدُ القَلَم " قطوف وخواطر "
- حِكَمٌ وفوائِدٌ جَادَ بها الخَاطِر
- البَلاءُ أنواعُهُ ومقاصِدُه
- فقهُ الاختلافِ عند أهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البِدَع
- صِراعُ الحضارات: مفهومُه، وحقيقَتُه، وواقِعُه
- من دخلَ ديارَ غير المسلمين بعهدٍ وأمانٍ، ما لَهُ وما عليه
- الجِّهَادُ والسِّياسَةُ الشَّرعِيَّةُ مُنَاصَحَةٌ ومُكَاشَفَةٌ للجَمَاعَاتِ الجهاديَّةِ المُعَاصِرَةِ
- الغُلامُ والملِك
- مُبادرةُ الجماعة الإسلامية المصرية اعترافٌ بالخطأ أم انهيارٌ وسقوط
- قواعد في التكفير
- الشيعة الروافض طائفة شرك وردة
- مُذكِّرَةٌ في طلَبِ العلم
- هذه عقيدتنا وهذا الذي ندعو إليه
- الهجرة مسائل وأحكام
- أعمال تُخرج صاحبها من الملة
- ملاحظاتٌ وردود على رسالة " مجمل مسائل الإيمان العلمية في أصول العقيدة السلفية "
- شروط لا إله إلا الله
- تهذيب شرح العقيدة الطحاوية..
- النسخة الأولية من كتاب الإنتصار لأهل التوحيد والرد على من جادل عن الطواغيت
- الطاغوت
- تنبيه الدعاة المعاصرين إلى الأسس والمبادئ التي تعين على وحدة المسلمين
- تنبيه الغافلين إلى حكم شاتم الله والدين
- صفة الطائفة المنصورة التي يجب أن تُكثِّر سوادَها
- العذر بالجهل وقيام الحجة
- "حُقوقٌ وواجباتٌ شَرَعَها اللهُ للعِباد"
- الطريق إلى استئناف حياة إسلامية وقيام خلافة راشدة على ضوء الكتاب والسنة
- الاستحلال
- حكم تارك الصلاة
- حكم الإسلام في الديمقراطية والتعددية الحزبية